الأبعاد النفسية للتصوف عند أبي مدين شعيب التلمساني من خلال قصائدة وأقواله

د. بلختير بومدين
جامعة تلمسان

الملخص:

إن التصوف علم تربوي سلوكي يتعلق بدراسة النفس الإنسانية من حيث تشخيص أمراضها والبحث عن العلاجات اللازمة لها مع ربط ذلك بالخالق سبحانه باعتباره خالق هذه النفس، وعليه فإن صميم دراسات علم التصوف يتعلق بعلم النفس البشرية.

ولما كانت النفس الإنسانية محل اهتمام في الإسلام باعتبار أن النيات في العبادات شرط لقبولها وهي إقرار نفسي بالخضوع للخالق سبحانه كانت الدراسات الروحية والنفسية جزءا من الشرع الحنيف.

ولقد برز علماء في هذا المجال في شتى ربوع العالم الإسلامي تمكنوا من علم التصوف واتخذوا طرقا لتعليم الناس

والوصول بهم إلى الارتقاء بالنفس البشرية وارتباطها بالخالق سبحانه، وكان من بين هؤلاء الشيخ سيدي بومدين شعيب دفين تلمسان الذي كرس حياته للتعليم الديني والروحي واتخذ من علم مكنونات النفس البشرية منطلقا يسعى به إلى سلوك مدارج الوصول إلى الله سبحانه وتعالى بتربية النفس وتهذيبها والوصول إلى حقيقتها، ويظهر ذلك من خلال قصائده وحكمه التي نقلت إلينا عن طريق تلامذته، فما هي الأبعاد النفسية التي يمكن أن نستخلصها من خلال ما قاله من حكم وأقوال وقصائد؟ وكيف يمكن استثمارها لمعالجة الأمراض النفسية وكسر شهوة النفس وإخضاعها لخالقها؟

مقدمة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده أما بعد:

فالإنسان مخلوق ذو تركيب ثنائي؛ فهو مركب من مادة وروح، ولم يكتمل تشريف الإنسان وتكريمه بالقبضة الترابية، بل اكتمل بالنفخة القدسية التي اكتسب بها فطرة الله عز وجل التي فطر الناس عليها، وإبليس لما رفض السجود لآدم عندما

خلقه الله سبحانه إنما نظر إلى جانبه المادي وغفل عن جانبه الروحي فقال مستكبرا : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: 61] وفي آية أخرى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[الأعراف: 12] فاستأهل إبليس بذلك لعنة الله والتخليد في جهنم.

فلا يكون الإنسان إنسانا بجسده فقط، ولا بروحه فحسب، بل هو إنسان بكليهما، فلو كان إنسانا بجسده فقط، إذاً لأخلد إلى الأرض واتبع هواه(1)، فيكثر الفساد، وتعم الفوضى، ويستشري الهرج، ويختل نظام الحياة(2)، ولو كان إنسانا بروحه فحسب لرغِب عن الدنيا، فيعطِّل مصالحه ومصالح الناس ويدعَ عمارة الأرض واستغلال ما فيها وتسقط بذلك المهمةُ التي أوكلت إليه: ألا وهي الخلافة.

وميزة الثنائية في تركيب الإنسان جعلته يتمتع بقوى متضادة متناقضة بين جوانحه، بعضها تجذبه إلى الأرض وتخلده إليها، والأخرى تسعى إلى الارتقاء به، والسمو به إلى الأعلى.

لكن القوة الغالبة لدى الإنسان السوي هي الخير وحب الصلاح له ولغيره، لأنه مفطور على الدين، والدين كله خير،

يقول عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم:30]

ومما يدل كذلك على أن الإنسان خلق مفطورا على الخير قوله تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ [التين: 4].

يقول الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية: (وتفيد الآية أن الإنسان مفطور على الخير وأن في جبلّته جلب النفع والصلاح لنفسه وكراهة ما يظنه باطلا أو هلاكا, ومحبة الخير والحَسَن من الأفعال, لذلك تراه يُسرُّ بالعدل والإنصاف, وينصح بما يراه مجلبة لخير غيره, ويغيث الملهوف ويعامل بالحسنى ويغار على المستضعفين ويشمئزُّ من الظلم ما دام مجردا عن روم نفع يجلبه لنفسه، أو إرضاء شهوة يريد قضاءها... فإذا ساورته الشهوة السيئة فزينت له ارتكاب المفاسد ولم يستطع ردها عن نفسه انصرف إلى سوء الأعمال, وثقُل عليه نصح الناصحين ووعظُ الواعظين على مراتب في كراهية ذلك بمقدار تحكم الهوى في عقله) [3].

إذن ما من إنسان يولد إلا وقد غرس الله فيه فطرة التوجه إلى الإيمان بالخالق وفطرة الطمأنينة إلى مشاعر عبودية الإنسان لله عز وجل، لا أدل على ذلك من قول الله عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30] ، ويؤكده ويوضحه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه: (...وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا...)[4] إذن فالهداية إلى الحق هي النصيب الأول الذي يكرم الله به كل إنسان عند ولادته وإقباله إلى الحياة الدنيا[5]، والإعراض عن الله الذي نراه من قبل البعض إنما هو مظهر من مظاهر النزول إلى رغبة الهوى والشيطان.

التصوف وعلم النفس:

إن التصوف باعتباره إرث سلوكي تربوي يحفظ مقام الإحسان لدى الإنسان بعد الإيمان والإسلام فهو يهدف في

المقام الأول إلى تربية النفس على العبودية والوصول بها إلى حضرة المولى سبحانه وتعالى وهو منتهى آمال السالكين إلى الله سبحانه.

فمتعلق علم التصوف بالدرجة الأولى هو النفس الإنسانية؛ هذه النفس التي حيرت الدارسين والسالكين ولا يزال الجدل حولها والبحث في أغوارها إلى يومنا هذا لكن الدراسات حولها تندرج اليوم تحت ما يسمى بعلم النفس وهو في حقيقته علم يهدف إلى دراسة النفس البشريّة وتهذيبها وتخليصها من الشوائب والأمراض التي تصيبها وتفقدها توازنها واستقرارها للوصول إلى الشخصيّة السويّة، أو هو عبارة عن دراسة علمية لسلوك الإنسان، وذلك بهدف التوصل إلى فهم هذا السلوك وتفسيره والتنبؤ به والتحكم فيه.

عكس التصوف الذي يدرس النفس بغرض تهذيبها ونزع الكدرات عنها حتّى ترتقي في مسالك العارفين فيتمخّض لها مقام التوحيد والعرفان. فالمنطلق وموضوع الاهتمام واحد لكن الهدف يختلف؛ ففي علم النفس ينطلق الدارسون من النفس البشرية للوصول إلى شخصية الإنسان السوية الخالية من الأمراض معتمدين على دراسة العمليّات العقليّة (الإدراك ،

الذاكرة ، التخيّل) فمنطلقهم الإنسان وهدفهم الإنسان، أما علم التصوف فينطلق الدارسون فيه من النفس البشرية للوصول إلى رابطة قدسية بين الإنسان وربه وذلك بتهذيب النفس وترقيتها معتمدين على ما أراده الله سبحانه وأمر به. ومن خلال التعريفات التالية للتصوف ندرك مقصده وهدفه عندما يتعلق بالنفس البشرية:

عرفه زكريا الأنصاري بقوله: «التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية» وعرفه أبو الحسن الشاذلي: «التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية»[6]

وقال ابن عجيبة: التصوف: «هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة»[7]

وارتبط علم التصوف في الدراسات الإسلامية برجال أعلام برزوا في هذا العلم دراسة وتذوقا وذلك للمكانة التي يتبوؤها الشيخ عند مريدي الطريق إلى الله سبحانه؛ لأجل ذلك

برز علماء في مجال التصوف وعلم مكنونات النفس في شتى ربوع العالم الإسلامي مثل عبد القادر الجيلاني وأبو الحسن الشاذلي، وابن عجيبة، والقشيري وغيرهم... تمكنوا من هذا العلم واتخذوا طرقا لتعليم الناس والوصول بهم إلى الارتقاء بالنفس البشرية وارتباطها بالخالق سبحانه، وكان من بين هؤلاء كذلك الشيخ سيدي بومدين شعيب دفين تلمسان الذي كرس حياته للتعليم الديني والروحي واتخذ من علم مكنونات النفس البشرية منطلقا يسعى به إلى سلوك مدارج الوصول إلى الله سبحانه وتعالى بتربية النفس وتهذيبها والوصول إلى حقيقتها، ويظهر ذلك من خلال قصائده وحكمه التي نقلت إلينا عن طريق تلامذته، فما هي الأبعاد النفسية التي يمكن أن نستخلصها من خلال ما قاله من حكم وأقوال وقصائد؟ وكيف يمكن استثمارها لمعالجة الأمراض النفسية وكسر شهوة النفس وإخضاعها لخالقها؟

قبل ذكر ذلك كله لا بد من ذكر ترجمة موجزة للشيخ أبي مدين شعيب:

ترجمة موجزة للشيخ أبي مدين[8]:

مولد الشيخ وبداية طلبه العلم:

هو أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري، أصله من قطنيانة [CANTILLANA] ،حصن صغير في الشمال الشرقي من أشبيلية [ٍSéville].

غادر الأندلس فارا من إخوته الذين استغلوا يتمه ليجبروه على رعي مواشيهم، وقصد العدوة طلبا للعلم ،لأنه كان يتألم إن رأى الناس يصلون وهو لا يعرف كيف يصلي.

و كان أميا في منتصف العقد الثاني من عمره عندما عبر إلى طنجة، ثم ذهب إلى سبتة حيث عمل أجيرا للصيادين، ثم انتقل إلى مراكش صحبة جماعة من أهل الأندلس إلا أنه وقع في مكرهم، فقد أدخلوه معهم في جملة الأجناد، و كانوا يأكلون عطاءه.

وفي مراكش قوت رغبته في العلم، فنصحه بعض الناس أنه إن كان يريد التفرغ للعلم فعليه بالانتقال إلى فاس.

رحلته إلى فاس ثم إلى بجاية:

سار الشيخ أبو مدين إلى فاس ولازم جامعها ومجالس العلم بها لكنه يحكي عن نفسه أنه لم يكن يعلق بقلبه شيء مما يسمعه حتى جلس إلى الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، وقد سأله الشيخ أبو مدين عن السر في ذلك، فقال له:» هم يتكلمون بأطراف ألسنتهم، فلا يتجاوز كلامهم الآذان، و أنا قصدت الله بكلامي فخرج من القلب«.

لازم أبو مدين شيخه ابن حرزهم{حرازم بالعامية}مدة كان يشتغل فيها في أوقات فراغه مع النسّاخين ليحصل على قوته، بينما يقضي ليله في المراجعة و العبادة.

ومن شيوخ أبي مدين بفاس الفقيه المجاهد أبو الحسن بن غالب المتوفى سنة 592 هـ قرأ عليه أبو مدين كتاب السنن لأبي عيسى الترمذي، ومنهم الشيخ أبو عبد الله الدقاق السجلماسي الأصل المدفون بمقبرة باب الجيسة، كذلك أخذ الشيخ أبو مدين عن أبي يعزى يلنور بن ميمون {572هـ} دفين جبل أيروجان قرب قرية تاغية، الذي لم يكن يتقن التكلم باللغة العربية، ولم

يحضر حلق علماء القرويين و إنما اخذ عن الشيخ أبي شعيب السارية مؤسس رباط أزمور، قال عنه أبو مدين:» طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زماننا فما رأيت أعجب من أبي يعزى، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي».

ولما اشتاقت نفس أبي مدين إلى الرحلة، و بالضبط لأداء مناسك الحج استأذن شيخه أبا يعزى فأذن له، وفي عرفة تعرف بالشيخ عبد القادر الجيلاني، و المرجح أن ذلك كان فيما بين 550 و555هـ ، فقرأ عليه بالحرم، وكان أبومدين يعده أفضل مشايخه الأكابر .

وكان الشيخ أبو مدين يؤثر بعد عودته من المشرق العزلة للعبادة، والتأمل، قال مبينا عن نفسه ذلك: قال لي بعض الأولياء: رأيت في النوم قائلا يقول: قل لابن مدين بث العلم ولا تبال ترتع غدا مع العوالي، فإنك في مقام آدم أبي الذراري، فقلت له: كنت عزمت على الخروج للجبال و الفيافي حتى أبعد عن العمران، ورؤياك هذه تعدل بي عن هذا العزم و تأمرني بالجلوس، فقولك:»ترتع مع العوالي» إشارة لحديث حلق الذكر

مراتع أهل الجنة، و«العوالي» أصحاب عليين، ومعنى قوله «أبي الذراري» أن آدم أعطي قوة النكاح و أمر به، ولم يجعل له قوة على كون ذريته مطيعين مؤمنين، وكذا نحن أعطانا الله العلم و أمرنا ببثه و تعليمه، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفقين».

ومن المرجح أنه اتخذ هذا القرار وهو بالجزائر آنذاك، وبالضبط عند عروس البحر عاصمة الحماديين بجاية، وقد قال عنها:» معينة على طلب الحلال».

مكث أبو مدين ببجاية أكثر من خمسة عشر سنة، و فيها تزوج بجارية حبشية، و أنجب منها ولدا، قال الشعراني:»وولده مدين هو المدفون بمصر بجامع الشيخ عبد القادر الدشطوطي، ببركة القرع، خارج السور، مما يلي شرقي مصر، عليه قبة عظيمة، وقبره يزار.»

وفي بجاية قرأ عليه الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي سنة 581هـ كتاب « المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» ولما قيد كلامه في الشرح في اليوم

الأول، قال له الشيخ في اليوم الثاني :» لا أريد أن تقيد عني شيئا مما أقوله في هذا الكتاب»

كما أن الشيخ أبا مدين درس بمدينة بجاية «الرسالة القشيرية» لأبي القاسم عبد الكريم القشيري.

وفاة الشيخ أبي مدين:

ولما اشتهر الشيخ أبو مدين، و كثر رواده و طلبته، وشى به بعض الحاقدين عند يعقوب المنصور الموحدي بعد أن اتهموه بالزندقة، و قالوا:» أنا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبها بالإمام المهدي، و أتباعه كثيرون في كل بلد» فبعث إليه السلطان ليختبره، و كتب لصاحب بجاية بالوصية و الاعتناء بحمله، فشق ذلك على أصحاب الشيخ،حتى قال لهم:» إن منيتي قربت، و لغير هذا المكان قدرت، فبعث الله من يحملني إليه برفق، و أنا لا أرى السلطان ولا يراني».

فارتحل به موكب السلطان إلى أن وصل مدينة تلمسان، في ضواحي منطقة « العباد» فقال لأصحابه :» ما أصلحه للرقاد»، ومرض مرض موته، فتوفى هناك سنة 594 هـ وحمل إلى العباد و دفن فيه رحمه الله .

الأبعاد النفسية لحكم وقصائد أبي مدين[9]:

إن التصوف يسعى بالإنسان لأن يعيش السعادة الأبدية التي تمتد إلى اليوم الآخر وهذا هو المحور الذي دار حوله كلام أعلام الصوفية والمقصد المنشود لكل صوفي خطط للوصول إلى رب العالمين.

وكلام سيدي بومدين على غرار كلام جل العلماء الربانيين لا يخرج عن كونه علاجا نفسيا لجميع الأمراض التي تصيب النفس الإنسانية للوصول بها إلى حالة من السعادة والطمأنينة التي تمتد إلى ما بعد الموت.

والأبعاد النفسية التي نلمحها من خلال أقوال وحكم سيدي بومدين تتوزع على أربعة أسس وهي:

أولا: التوحيد (البعد العبادي)

يمكن القول بأن التوحيد هو المحور الذي تدور حوله الأبعاد النفسية الأخرى وهو القوة الدافعة لديناميكية السلوكات الإنسانية، ونجد في أقوال أبي مدين ما يؤكد على هذا البعد وأهميته في تسوية السلوك وتهذيب النفس، ويتعلق

هذا البعد بمعرفة الله سبحانه وعلاقة الفرد مع ربه ومحبة الله ثم الفناء فيه وهو أسمى مقامات الصوفية وأرقى ما يصل إليه السالك إلى الله وهذه كلها تكسب النفس الإنسانية راحة وسعادة وأمن.

ففي معرفة الله يقول أبو مدين: «من لم يكن بالأحد لم يكن بأحد»

ويقول أيضا: «من عرف أحدا لم يعرف الأحد»، ويقول كذلك: «من أنس بالخلق استوحش من الحق»، ومن أقواله أيضا: «من نظر إلى المكونات نظرة إرادة وشهوة حجب عن العبرة فيها والانتفاع بها». وهو إشارة إلى انتقال العبد من الكائن إلى المكون، فالانتفاع بالمكونات يكون بالانتقال إلى المكون وهو الله سبحانه.

ومن أشعاره في معرفة الله سبحانه:

فإذا نظرت بعين عقلك لم تجد
شيئا سواه على الذوات مصورا
وإذا طلبت حقيقة من غيره
فبذيل جهلك لاتزال معثرا

وفي قصيدته «أيا من تعالى مجده» يمزج فيها أبو مدين بين المناجاة لله سبحانه وتعظيمه وكيف يجب أن يعرف فيقول في مطلعها:

أَيَا مَنْ تَعَالَى مَجْدُهُ فَتَكَبـــَّرَا
وَجَلَّ جَلاَلاً قَدْرُهُ أَنْ يُقَـدَّرَا
وَمَنْ حُكْمُهُ مَاضٍ عَلَى الْخَلْقِ نَافِذٌ
بِمَا خَطَّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ وَسَطَّرَا

وفي علاقة العبد بالحق سبحانه يجعل أبو مدين التحقق بالعبودية لله محور العلاقة وجوهرها حب الله ثم الفناء فيه فيقول: ا»لقريب مسرور بقربه والمحب معذب بحبه»

ويقول أيضا:» المحبة الأنس بالله والشوق إليه» ويقول أيضا في المحبة: «إياك أن تميل إلى غير الله فيسلبك الله لذة مناجاته»

ويقول في الانتقال من المحبة إلى الفناء: « الحب أوله دوام الذكر ووسطه الأنس بالمذكور وأعلاه ألا ترى شيئا سواه» ويقول أيضا: «أسماء الله تعالى بها تعلق وتخلق وتحقق، فالتعلق

الشعور بمعنى الاسم، والتخلق أن يقوم بك معنى الاسم والتحقق أن تفنى في معنى الاسم» ويجسد معنى الفناء في قصيدة مطلعها «الله قل» فيقول:

الِلّه قل وذر الوجود وما حوى
إن كنتَ مرتاداً بلوغَ كمالِ
فالكلُّ دون اللَهِ إن حقّــقتهُ
عدمٌ على التفصيل والإجمال

ولا يخفى ما لمعرفة الله ومحبته والفناء فيه من فائدة في معالجة النفس والوصول إلى السعادة لأن الإيمان بالله ومعرفته من أسباب هجر المعاصي واطمئنان القلوب.

ثانيا: إقامة الواجبات والتكاليف (تفعيل السلوك)

لا معنى للتوحيد والإخلاص لله سبحانه إذا لم يكن بعده سلوك يترجم ما يؤمن به المريد، وسلوك الشخص هو جوهر التصوف فلا فائدة من تصوف خال من السلوك، وأقوال علماء التصوف كلها تتخذ من الأفعال والسلوك جوهر هذا العلم وسيدي أبو مدين على غرار باقي المتصوفة سعى من خلال

أقواله وحكمه إلى الوصول بالمريد إلى حال التحقق بعلم التصوف فيقول: «من شرط المريد أن يعرف زيادته ونقصه وذلك ليجدّ في العمل كلما طرقه الكسل» وفي بعض أقواله كذلك يبين سيدي بومدين ما يعين سالك الطريق على العمل إن هو أراد أن يتحقق بمعنى التصوف فيفصل ما للمريد فعله وهو في طريقه إلى تزكية النفس وتهذيبها فيقول: « لا تصح للمريد حقيقة الإرادة إلا بغض البصر وحفظ الفرج وترك الحرام والخروج من الرياء والسمعة والشهوات والدوام على الصلوات في الجماعة وترك ما لا يعني ولزوم الخلوة عن الناس والزهد في الدنيا» والفرائض ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم في أحكامه أساس التكاليف وجوهر الارتقاء بالنفس بالنسبة لأبي مدين فمن بين أقواله في هذا الصدد: «من أهمل الفرائض فقد ضيع نفسه» ويقول: « لا طريق أوصل إلى الحق إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحكامه»

كما أن أبا مدين شعيب أعطى للأخلاق نصيبا أكبر في أقواله ما دام أن مريد طريق التصوف يسعى إلى كسر شهوات النفس وغمرها بالأخلاق الراقية الفاضلة في معاملاته مع كل أحد مهما كانت مكانته بالمجتمع فيقول:» المريد: آثار نوره مع

الفقراء بالأنس والانبساط ويكون مع الصوفية بالأدب والارتباط ويكون مع المشايخ بالخدمة والاتعاظ ويكون مع العارفين بالتواضع والانخفاض ومع العلماء بحسن الاستماع والافتقار، ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار، ومع أهل المقامات بالتوحيد والانكسار».

ويبين أبو مدين أن هذه الآداب هي الأساس في وصول المريد إلى مقامات النهاية فيقول: « من لم يقم بآداب البداية كيف تستقيم له دعوى مقامات النهاية؟» والخلق الأسمى الذي بنيت عليه أخلاق وسلوكات المريد في التصوف هو خلق الزهد فنجد سيدي أبا مدين يؤكد على هذا الخلق ويطلب من المريد الاتصاف والتحقق به؛ ففي تعريف الزهد يقول أبو مدين: « الزهد العزوف عن الدنيا والإعراض عنها لحقارتها وتركها لاستصغارها ورؤية هوانها» ويبين فضل الزهد فيقول: «الزهد فضيلة وفريضة وقربة؛ فضيلة في المتشابه وفريضة في الحرام، وقربة في الحلال» وفي الأمر بالتحقق بهذا الخلق يقول: « اطرح الدنيا على من أقبل عليها وأقبل على مولاك» وفي فائدة الزهد وتأثيره على النفس يقول: «الزاهد في راحة» ويقول: « الزهد عافية»

ثالثا: المعاملات (علاقة الإنسان بغيره)

النفس الإنسانية مجبولة على حب الاجتماع والتفاعل مع أفراد المجتمع ويعني هذا البعد أن الشخصية السوية مستعدة للخروج من ذاتها وتتجه نحو الذوات الأخرى والشخصية المنطوية على الذات تعد في علم النفس شخصية مضطربة، ونجد في أقوال أبي مدين وحكمه وقصائده ما يؤكد على هذا البعد ويطرقه من جوانب ثلاثة وهي علاقة المريد مع شيخه ومع أهل العلم وعلاقة المريد مع الناس جميعا وعلاقة المريد مع البطالين أو المبتدعين وهم الذين يصرفون المريد عن طريق التصوف.

وعلاقة المريد مع الشيخ ومع أهل العلم أساسها الاحترام والخضوع والطاعة والاتباع، والشيخ في فكر أبي مدين هو: « من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالتعظيم» وهو: «من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه» .

فتأديب النفس وتقويمها لا يكون بغير شيخ في منطق الصوفية، يقول أبو مدين: « لا ينال الفقير مراده إلا بثلاثة أشياء: العمل بالقرآن والسنة واتخاذ الأستاذ»

والشيخ أبو مدين يطلق على أهل التصوف لفظ الفقراء والفقير عند الصوفية يقصد به: المجرد عن العلائق المعرض عن العوائق لم يبق له قبلة ولا مقصد إلا الله تعالى وقد أعرض عن كل شيء سواه وتحقق بحقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله(10).

ومن بين ما قاله في مصاحبة أهل التصوف من المشايخ والعلماء قصيدة «ما لذة العيش « حيث يقول في مطلعها:

مـا لـذة الـعيش إلا صحبة الفقرا

هم السلاطين و السـادات والأمرا

فاصحبهمو وتأدب في مجالســـهم

وخل حـظك مـهما قـدموك ورا

والقصيدة شرحها ابن عطاء الله السكندري في شرح موفق نفيس سماه « عنوان التوفيق في آداب الطريق».

وأكثر قصائد أبي مدين تتحدث عن حال المريد مع شيوخ وعلماء التصوف مثل قصيدة أشواق والتي يقول في مطلعها: تضيق بنا الدنيا إذا غبتم عنا ** وتذهب بالأشواق أرواحنا منا

وقصيدة «من الحب» التي يقول في مطلعها:

تملكتمو عقلي وطرفي ومسمعي

وروحي وأحشائي وكلي بأجمعي

وقصيدة أحب لقا الأحباب، وقصيدة جئت مستخفيا وغيرها ..

أما في علاقته مع الناس جميعا فأساسها التواضع وخفض الجناح للناس، ومن بين ما يقوله الشيخ أبو مدين في هذا المقام: «حب العلو على الناس سبب الانتكاس» ويقول: «أنصف الناس من نفسك واقبل النصيحة ممن هو دونك تدرك أشرف المنازل»

ويقول في التحذير من تضييع حقوق الناس: «من ضيع حقوق إخوانه، ابتلي بتضييع حقوق الله تعالى»

وفي علاقة المريد مع البطالين والمبتدعين أو كما يسمون في علم التصوف المدّعون فالشيخ ابو مدين يحذر من مصاحبتهم وملازمتهم حتى لا يصاب في دينه فيقول: «احذر صحبة المبتدعة اتقاء على دينك» ويبين أصناف المبتدعة فيقول في حكمة أخرى: «من أضر الأشياء على المريد صحبة عالم غافل عن مراعاة ربه بقلبه أو صوفي جاهل بأحكام الشريعة، أو واعظ يداهن الناس ويرخص لهم طلبا لميلهم إليه».

ويزيد كذلك في بيان أصناف المبتدعة وعلاماتهم والتحذير منهم فيقول: « من رأيته يدعي مع الله حالا لا يكون على ظاهره شاهد فاحذره».

إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات وتنخرق له العادات فلا تلتفتوا إليه ولكن انظروا كيف هو عند امتثال الأمر والنهي».

وفي الآثار المترتبة على مخالطة أهل البدع يقول الشيخ أبو مدين: «مخالطة أهل البدع تميت القلب، من كان فيه أدنى بدعة فاحذر مجالسته لئلا يعود عليك شؤمها بعد حين»

فالإنسان الذي يسلك طريق الله لا بد أن يتخذ معينا على ذلك هذا المعين إما أن يكون شيخا موجها ومذكرا أو رفيقا معينا على تخطي عقبات الطريق وليحذر المريد من مصاحبة المدعين أو المبتدعين لأنهم يصرفونه عن الحق ويحببونه في الدنيا وينسونه ذكر الله وواجباته تجاهه.

رابعا: مواجهة المشاكل والأزمات بالطرق الإيجابية:

لا يخلو سبيل السالك إلى الله من العقبات والأزمات التي تعترض طريقه بين الحين والآخر، لذا كان على المريد إذا

أصابته مصيبة أن يتصرف تصرف العاقل معها وبالطريقة الإيجابية المثلى ولا يدعها تعكر مزاجه وحاله مع مولاه، والطرق المثلى للمريد التي يسلكها لمعالجة المشاكل والعقبات ومواجهتها تكون بالرجوع إلى الله سبحانه بالذكر والدعاء والتوكل عليه في الأمور كلها ثم الرجوع إلى النفس بالمحاسبة والمراقبة ثم التسليم والرضا بكل ما يصيب الإنسان.

وفي أقوال الشيخ أبي مدين ما يدل على هذه الطرق الإيجابية في معالجة الأمراض النفسية فيقول في الذكر: «جعل الله قلوب أهل الدنيا محلا للغفلة والوسواس، وجعل قلوب العارفين محلا للذكر والاستئناس» ويقول أيضا: «إذا أراد الله بعبد خيرا آنسه بذكره ووفقه لشكره» ويقول: « من دامت أذكاره صفت أسراره، ومن صفت أسراره كان في حضرة الله تعالى قراره».

وفي الدعاء والالتجاء إلى الله سبحانه يجسد الشيخ أبو مدين حال المريد أمام رب العالمين في قصيدة إليك مددت يد الرجى، يقول في مطلعها:

لألطافك الحسنى مددت يد الرجى*وحالي كما تدري وأنت المؤمل

فالذكر عامل مهم من عوامل الصحة النفسية لأنه يجعل العبد في حال مع ربه وبذكر الله تطمئن القلوب وتصفو النفس وتزول الأدران.

وفي التوكل الذي يجعل النفس في حالة راحة وطمأنينة وسكون يقول الشيخ أبو مدين: «توكل على الله حتى يكون الغالب عليك ذكره على ذكرك، فإن الخلق لن يغنوا عنك من الله شيئا» ويقول أيضا: «من ترك التدبير والاختيار طاب عيشه» ويقول: «العبد من انقطعت آماله إلا من عند مولاه». ويقول: « التوكل توكل بالمضمون واستبدال الحركة بالسكون»، ويقول أيضا: «العبد ييأس من الفرج إلا من مولاه».

والعبد لا بد له أن يرجع إلى نفسه لمراجعتها ومحاسبتها قبل تماديها في فعل المنكرات وحفظها من الغرق في الملهيات، ومحاسبة النفس من صميم علم التصوف لذا روي من الآثار عن أبي مدين ما يحث المريد على هذا السلوك فيقول في بعض حكمه: «الحق سبحانه مطلع على السرائر والظواهر في كل نفس وحال، فأيما قلب يراه مؤثرا له حفظه من طوارئ المحن ومُضلات الفتن». ويقول: «من لم يجد في قلبه زاجرا فهو

خراب». ويقول أيضا: «الخوف سوط يسوق ويعوق، يسوق إلى الطاعة ويعوق عن المعصية».

ويجعل الشيخ أبو مدين التسليم والرضا بقضاء الله وقدره من العوامل المعينة على مواجهة الآلام والمصائب ومن الأسباب الموصلة إلى طمأنينة النفس وراحتها وسكونها وسعادتها، والتسليم والرضا مقام رفيع يحل بالقلب فينعشه وليس ذلك لكل أحد ولا يكون إلا بعد مجاهدة عظيمة وعصيان للنفس كبير.. ويقول الشيخ أبو مدين في بيان هذا المقام: «التسليم إرسال النفس في ميادين الأحكام، وترك الشفقة عليها من الطوارق والآلام»، ويقول: «احرص أن تصبح وتمسي مفوضا مستسلما لعله ينظر إليك ويرحمك» ، ويقول في حكمة أخرى مبينا معنى التسليم الحقيقي الذي لا يصل إليه إلا المتحقق بمعاني التصوف والسالك الحق إلى طريق الله سبحانه وهو معنى الرضا بالمصائب مع عدم الجزع معها فيقول: « استلذاذك بالبلاء تحقيق الرضا».

فالمريد الذي جعل أساس الطريق إلى الله هو ترويض النفس وتهذيبها بمقتضى أوامر الشرع ونواهيه للوصول إلى

حالة من السعادة والطمأنينة لا يمكن أن يواجه العقبات إلا بالرجوع إلى رب العباد الذي يسلك طريقه وهو يدري أنها رسائل تهذيبية تولي وجه السالك شطر الطريق القويم إن هو زاغ وضل.

خاتمة:

إن أقوال الشيخ أبي مدين وحكمه وقصائده ما هي إلا ترجمة للمقامات والأحوال التي أثمرتها تربيته الصوفية السلوكية، وأساس هذه التربية هو تقويم النفس وتهذيبها والمقصد المرجو من ذلك هو الوصول بالنفس إلى السعادة المطلقة في الدنيا والآخرة، ونجد عند قراءة أقوال أبي مدين أنها ذات أبعاد نفسية أربعة فأساسها البعد العبادي الذي يعني الإيمان المطلق بالله سبحانه وتوحيده ثم محبته الخالصة والفناء فيه برؤية المكونات كلها تدل عليه، ويعتبر هذا البعد بمثابة الأرضية الأساسية التي ينبني عليها علم التصوف، والبعد الثاني يتمثل في إقامة التكاليف أو تفعيل السلوك لأن الإيمان بالله لا معنى له دون تطبيق، وإقامة التكاليف يكون بأداء الواجبات

وبالتحلي بالأخلاق الفاضلة، أما البعد الثالث فيتمثل في بعد المعاملات والذي يعني تجاوز الذات والانخراط في علاقة مع الذوات الأخرى ولا شك أن الفرد في حاجة إلى هذه العلاقة لأنه مجبول على الاجتماع ولا تستوي شخصيته إلا بتلبيته لهذه الرغبة وهذا البعد يتوزع على ثلاث علاقات؛ علاقة المريد بشيخه وبأهل العلم، وعلاقته بالناس جميعا على اختلاف طبائعهم ثم علاقة المريد بالبطالين وأهل الأهواء ولكل صنف من هؤلاء طريقة في المعاملة تهدف كلها إلى الزيادة في ترقية النفس والحفاظ على ما اكتسبه المريد من تربية سلوكية، والبعد الرابع يتمثل في تهيئة النفس لمواجهة العقبات والمصائب التي تعترض طريق السالك لكيلا تصرف المريد عن طريق الحق وتكون المواجهة بالالتجاء إلى الله بالذكر والدعاء وبالرجوع إلى النفس بالمحاسبة والمراقبة والمراجعة كلما زاغت ثم الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره ولا يكون هذا التسليم على مرارة تصيب القلب بل يكون على لذة لأنها في منطق السالك رسالة من الله إليه تذكره بطريقه الذي يسعى به للوصول إلى الله سبحانه.

الهوامش:

(1) قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: 175-176]

(2) قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: 22]

(3) الطاهر بن عاشور- تفسير التحرير والتنوير- 30/ 377.

(4) رواه مسلم- كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار- رقم(2865).

(5) محمد سعيد رمضان البوطي- الإنسان مسير أم مخير؟ - ط1- 1997- دار الفكر المعصر - بيروت- دار الفكر- دمشق- ص 107

(6) حامد صقر، نور التحقيق في صحة أعمال الطريق، مصر، 1970م، ص 93.

(7) أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ص 25.

(8) ينظر: يوسف بن يحيى التادلي ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق: أحمد توفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.2 [1997م]، ص 319 وما بعدها. وينظر: ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ط.1 [1965م]. وينظر: محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني، شركة دار الأمة، الجزائر، ط.1 [2011م]، ص 13 وما بعدها. وينظر: عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين شعيب حياته ومعراجه إلى الله، منشورات المكتبة العصرية، ص 17.

(9) أقوال وحكم أبي مدين مأخوذة من كتاب: العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني، محمد الطاهر علاوي، المرجع السابق، ص [125 - 191] .

(10) ابن عطاء الله السكندري، عنوان التوفيق في آداب الطريق، دار الإشراق، ط.1 [14.5هـ / 1985م]، ص 4